

حروف الكتابة

تاريخ نشوئها وتطورها

تنقسم الكتابة الى قسمين الصورية التي مازالت تستعمل الى اليوم عند بعض هنود أميركا والصوتية. وهذه تنقسم الى ثلاث درجات. الأولى كل صورة أو علامة تدل على كلمة كاملة كاللغة الصينية والثانية تدل على مقاطع فقط، والثالثة لاتدل على العلامات على المقاطع بل على أبسط الاصوات البشرية اللفظية وهذه العلامات صارت حروفاً سمي مجموعها بحروف الهجاء كما هو معروف (١) —

وقد اختلف المؤرخون في كيفية تفرع حروف الكتابة ولكنهم اتفقوا على أن المصريين هم أول من أوجدها وذلك في أيام السولة الرابعة ق.م. ذلك الوقت انشأوا نظاماً عجمياً مختلطاً للكتابة عبر فيه عن المعاني بصور وحروف هجائية وكان عندهم ثلاثة خطوط من الهيرغليف. الأول فيه كانت الصور والرموز ترسم بكل دقة وكان يستعمل للكتابة على العاديات من الأبنية والاعمدة والثاني المقدس وهو مختصر للتسهيل واكثر خطوط أوراق البردي مكتوبة به والثالث الشائع أو العامي (٢) — وهذا الخط — أعني الهيرغليف — كان في الأصل عبارة عن صور كاملة تعبر عما المصور فكان المراد من صورة الرجل الرجل، ومن صورة المرأة المرأة. ثم اتخذوا الصور للتعبير عما يتضمنه المصور مجازاً. فاتخذوا صورتي رجل وامرأة للتعبير عن جنس الانسان بصورة هلال للتعبير عن الشهر وما اشبه. ثم انتهوا الى أن كانوا بصورة الشيء عن الصوت الأول في اسمه فكانت النذرة تدل على الشمس التي اسمها را أوري فاتخذ هذه الصورة كناية عن صوت الراء ٣ كما بين العلامة شامبوليون في حله رموز حجر رشيد. فبالصور الحقيقية والمجازية وصور الكناية عبروا عن المعاني ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من الصعوبة في الكتابة والقراءة، ولا عجب من أن

(١) — التاريخ القديم لميرز صفحة ٤

(٢) — التاريخ القديم لميرز صفحة ١٥

(٣) — الصور القديمة لبرستد صفحة ١٧٣

الناس لم يقدروا على كشف سرهما، ثم اخنوا يغيرون الاشكال ويوصلونها في الخط لتسهيل الكتابة فامسى هذا الخط مختلفاً جداً عن أصله (١) —

وقد انتقل الخط من مصر الى بقية الأمم كالكلدانيين والاشوريين وتبدل عندهم تبديلاً محسوساً، فقد تبين أنه كان للبابليين منذ العصور القديمة نسق كتابة بحروف صوتية سميت بالكتابة الاسفينية لأن حروفها على هيئة الاسفين وهذه الكتابة كانت مستعملة بين شعوب آسيا الغربية منذ نحو ٥٠٠٠ سنة ق. م. الى القرن الاول قبل التاريخ المسيحي وكانت هذه الكتابة مدة اربعة آلاف سنة ذات شأن عظيم في تمدن العالم السامي كما كان للحروف الفينيقية شأن مدة ثلاثة الاف سنة بعد ذلك في تمدن العالم الآري (٢) فخط الاشوريين مركب من حروف أو علامات حقيقية على هيئة الاسفين وهي كثيرة تنيف على ٣٠٠ حرف أو علامة إذ كل صوت اصلي عندهم يترتب مع الحركات ما يقابل حروف العلة مثل ب، باه، بوي، ب، دبو، وأب، واب، وأب، ولكل منها علامة خاصة، وقس على ذلك بقية الاصوات الستة عشر الاصلية في لغتهم. ثم يركب حرفان أو صوتان مع كل من الحركات في الوسط ولكل من هذه التراكيب علامة أيضاً ولهذا كثرت العلامات وتعسرت قراءتها (٣)

ومن الكلدانيين والاشوريين انتقل الخط الى الفينيقيين الذين سكنوا البحرين أولاً ثم انتقلوا الى شواطئ بحر الروم وهم من نسل حام — على رأى بعض المؤرخين — ولما رحلوا روا في نجد والحجاز وتفرع منهم قوم في اثناء الطريق استوطنوا واحة جبل عير. ولعلمهم قوم ثمود في اخبار العرب. ثم اتى الساميون وهاجموهم وسكنوا أرضهم: قال ابن خلدون في اثناء كلامه على الطبقة الاولى من العرب، ويقال إنهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما زاحهم فيها بنو حام فكنوا جزيرة العرب، (٤)

إلا أن هذا الرأي ينقصه البراهين الكثيرة لكون قصة حام وسام ليست من

(١) — التاريخ القديم لهارفي بورتر صفحة ٣١ :

(٢) — التاريخ القديم لميرز صفحة ٢٣ :

(٣) — التاريخ القديم لهارفي بورتر صفحة ٦٩ :

(٤) — التاريخ القديم لهارفي بورتر صفحة ١٨٦ :

القصص التي يعتمد عليها في تحرى التاريخ لأن الأمم ليست متسلسلة من افراد كما كان يظن، وتعد تكون قصة أولاد نوح من الخرافات الدينية مع صحة وجود الطوفان المذكور في الكتب المقدسة. فالفينيقيون بعد هجرتهم استوطنوا شواطئ بحر الروم وأوجدوا الحروف الهجائية المعروفة التي اجمع النقاد والمؤرخون على نسبتها اليهم ومنهم انتقلت الى اليونان فالرومان فالجرمان حتى عمت العالم (١)

وهذه نظرة اجمالية في كيفية نشوء الحروف، أما تطورها للحروف العربية الحاضرة فقد اختلف فيه المؤرخون فتنهم من يقول ان الخط المسند أصل كل الخطوط السامية بعد الخط الفينيقي ومنهم من يقول ان الخط الآرامي أصل هذه الخطوط انما مع اختلافهم هذا فهم متفقون على اسبقية الخط الفينيقي للمسند والآرامي فالافرنجج يرتأون أن الخط الفينيقي مأخوذ من الخط المصري وأن الخطين المسند والآرامي مأخوذان من الفينيقي والخط الآرامي تفرع الى خطين السرياني والنبطي ومن السرياني تفرع السطرنجيلي ومن السطرنجيلي تفرع الكوفي وتفرع من النبطي الحيري والانباري ومن الحيري والانباري تفرع الخط الحجازي المعروف بالنسخي، والعرب يقولون أن لخط الفينيقي تفرع من المصري وأن المسند والآرامي تفرعا من الفينيقي ومن المسند تفرعت أربعة خطوط الصفوى والشمودى واللياني والحيري ومن الصفوى تفرع الكندى والنبطي ومن الكندى والنبطي تفرع الحيري والانباري ومن الحيري والانباري تفرع الحجازي ومن هذا تفرع الخط الكوفي. قال صاحب أصول المعارف (٢): وظن بعضهم أن العرب في الزمن المتوغل في القدم كانوا يستعملون في الخط الحروف الشبيهة بالمسامير فاذا صبح ذلك يمكننا أن نقول بأن الحروف المذكورة تغيرت فيما بعد بالحروف الحيرية وهي خط يقال له المسند كانوا يكتبون كل حروفه منفصلة عن بعضها وكانوا يمنعون العامة من تعلمه فلا يتعلمه أحد إلا باذنهم قال ابن خلدون وغيره فمن هذا الخط كان بالغا مبلغاً من الأحكام والانتقان والجودة في دولة التابعة لما بلغت من الحضارة والترف وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل

(١) — التواريخ القديمة لمليرز صفحة ٣٥ والتاريخ القديم لهارفى بورتر صفحة ١٠٣

والعصور القديمة لبرستد صفحة ٢٠٥

(٢) — أصول المعارف لنوفل نوفل صفحة ١٢٠

المنذر أنساب التابعة في العصابة والمجدين ملك العرب بأرض العراق، لكنه يمكن في الجودة عندهم كما كان عند التابعة ثم من أهل الحيرة لقته أهل الطائف وقريس عن رجل يقال له مرار بن مرة، من بني طي، وقيل من بني مرة من أهل الأنبار، وقال بعضهم نقلًا عن الأصمعي إن بني قريش سئلوا من أين لكم الكتابة فقالوا من الحيرة وقيل لأهل الحيرة من أين لكم الكتابة فقالوا من الأنبار، وروى ابن الكلبي والسهم بن عدي أن الناقل لهذه الكتابة من الحيرة إلى الحجاز هو حرب بن أمية وقيل سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي وكان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة. وقيل لأبي سفيان بن حرب: ممن أخذ أبوك هذه الكتابة فقال: من أسلم ابن سدره وقيل لأسلم: ممن أخذت الكتابة فقال من مرار بن مرة. والحاصل أن من حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا يجيدون لها لتوغلهم في البداوة، ودامت خطوطهم غير مستحكمة في الإجازة إلى أول الإسلام ثم أبدل الخط الحيري المذكور بالخط الكوفي وذلك بعد أن فتح المسلمون الأمصار وملكوا الممالك واحتاجوا إلى الكتابة فاستعملوا الخط وطلبوا صناعته فبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان إلا أنها كانت دون الغاية ومع أن هذا الخط لم تطل مدته وأبدل سريعاً بالخط البغدادى المتداول الآن ما زال رسمه معروفًا

ولما انتشر العرب في الاقطار وفتحوا إفريقيا والأندلس واختلط أبو جعفر المنصور مدينة بغداد وصارت دار الإسلام ومركزاً للعلوم العربية ظهر الخط البغدادى المذكور وتسمى بالجزم. قال صاحب محيط المحيط في تعريف الجزم - الجزم مصدر - والقلم لاحرف له. والخط المتعارف في أيامنا هذه لأنه جزم أى قطع من خط حمير وهو الذى يقال الخط المسند - وقيل إن الذى وصل احرف الهجاء العربية ببعضها على هيئة استعمالها الآن في الكتابة على ما ذكرناه بعد أن كانت حروفاً منفصلة متورجل يقال لما الشيخ على بن هلال السمانى. وقيل بل أن الذى قل هذه الطريقة من خط الكوفيين وأبرزها في هذه الصورة المستعملة الآن هو تلميذه أبو على محمد بن على بن الحسين بن مقلة الذى يضرب المثل بحسن خطه فيقولون لمن أرادوا المبالغة في جوده خطه: أجود من خط ابن مقلة وكان وزيراً للقتدر بالله العباسى، وقيل أيضاً إن صاحب الخط المنسوب ليس أباً على المذكور وإنما هو أخوه أبو عبد الله الحسن، وقيل بل هو أبو الحسن على بن هلال

المعروف بابن اليواب الكاتب المشهور ، زعموا بأنه لم يوجد في المتقدمين ولا التأخرين من كتب مثلهم لا قار به وإن كان أبو علي ابن مقلة المذكور هو أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وأبرزها في هذه الصورة وله بذلك فضيلة سبق وخطه أيضاً في نهاية الحسن لكن ابن اليواب هذب طريقته هذه ونقحها وكساها طلاوة وبهجة، والكل معترفون له بالفرد وعلى مثاله ينسجون وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعى ذلك. توفي سنة ٢٣٠ للهجرة — ١٠٣١ م — وكان شيخه في الكتابة ابن أسد الكاتب البزاز البغدادى المتوفى سنة ٤١٠ للهجرة — ١٠١٩ م .

وما حكاه أبو احمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري في كتاب التصحيف أن تمييز الحروف المشابهة في رسمها بالنقط حدث في أيام عبد الملك بن مروان الذي تولى الخلافة في سنة ٦٥ للهجرة — ٦٨٤ م حيث قاله وغير الناس يقرؤون في مصحف عثمان بن عفان نفاً وأربعين سنة أيام عبد الملك بن مروان ثم كثرت التصحيف وانتشرت بالفرات ففرع الحجاج بن يوسف إلى كتابه — وكان يومئذ عاملاً على البصرة لعبد الملك المذكور وسواهم أن يضمنوا لهذه الحروف المشابهة علامات فقام بذلك الضر بن عاصم ووضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أما كتباً فغير الناس بذلك ما لا يكتبون الا منقوطاً فكان مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف فأحدثوا الأعجاف فكانوا يتبعون النقط والأعجاف. وما اعترض به على الحروف العرية عدم وجود دليل على فصل النكات عن بعضها كما فعل الأفرنج فقد ذكر بعضهم لصاحب أصول المعارف حكاية في هذا المعنى وهي أنه جاء ذات يوم رجل من الأتراك يحب المطالعة ويرغب في أشعار العرب وسأله عن معنى القطا طيب فتفكر في ذلك برهة ولم يخطر له أنه سمع هذه اللفظة قط مدة حياته ومن ثم أجابه بأنه لا يظن أن هذه اللفظة في اللغة العرية، فقال لا بل عرية كيف لا وبعض شعرائكم يقول :

ولولا المزججات من الليالي لما حرم القطا طيب المنام

فضحك منه وأفاده صحة التلفظ في ذلك الى أن فهم المعنى واعتذر له بأنه كان يظن لفظه طيب جزءاً من اللفظة التي قبلها .